الرواية الأطروحة ـ الوجود و الحدود ـ

زرادي ميلود: طالب دكتوراه
اسم و لقب المشرف: نجاة عرب الشعبة ، الرتبة: أستاذ محاضر –أ–
مخبر : الشعريات و تحليل الخطاب
جامعة : باجي مختار عنابة

الملخص:

تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على أهم تطورات الرواية و الوقوف على أهم تصنيفات (رواية الحدث، و رواية الشخصية، و رواية الأطروحة..الخ) ،حيث تسعى إلى إزاء الضبابيّة حول رواية الأطروحة من خلال تعريفها و تطورها و أهم مميزاتها التي تتفرد بها عن غيرها من الروايات كما أخذت هذه الدراسة رواية "هذا الأندلسي" لبنسالم حميّش أنموذجا روائيا لهذا النوع من الروايات .

الكلمات المفتاحيّة: الرواية ، رواية الحدث ، رواية الشخصيّة ، رواية الأطروحة ، الكتابة الروائية.

Summary :

This study attempts to highlights the Most important développements of the Novel and to identify the Most important classifications (Novel évent, A personnel Novel, Novel thèses, ..., etc.), where It seeks to blur the Novel of the thèses through the définition and développent and the Most important characteristics That are unique to other Novels, And This study took the Novel "This Andalusian" Bensalem Hamish Novel model of This type of Novels.

Key words: the Novel, Novel évent, A personnel Novel, Novel of adeas, Fiction writing.

تعّد الرواية فناً يحظى بمكانة هامة ضمن الحركة الأدبيّة، حيث تجتهد في الانفتاح على الروافد الثقافيّة والوسائط المختلفة التي تخدم إستراتيجيتها التلّفظيّة والدلاليّة، وتسعى على إثر ذلك إلى تمرير الرسائل الفكريّة والإيديولوجيّة في تشكيل سردي أساسه العناصر

المتباينة لغوياً وزمنياً ومكانياً،ضف إلى ذلك ارتباطها الوثيق بالواقع،وقدرتها على رصد تحولاته.

ومن هذا المنظور فقد شحن النص الروائي العربي بالعديد من المضامين السياسيّة والاجتماعيّة والأنساق الفكرية الإيديولوجيّة،ما أهل الرواية أن تكون رافداً لمختلف التيارات الفكرية والإيديولوجيّة التي تتصارع وتتفاعل فيما بينها وقد يتبنى الروائي إحداها فينبري مدافعا عنه مقوضاً غيره حاملاً متخيله الابداعي رواية أطروحة ،وبناء عليه يمكن بلورة الإشكاليّة العلميّة التالية: كيف تتخلق الأطروحة في النسيج الروائي؟ما هي مميزات رواية الأطروحة؟ ما مدى استثمار الرواية الأطروحة لمقولات الأنواع الروائية الأخرى؟.

1-مفهوم الرواية:

تعّد الرواية جنسًا أدبيًا حديثاً يتواصل مع الأجناس الأخرى يحاورها ويتعالق بها، وينفتح عليها،وهي مستحدثة في أدبنا العربي، إذْ سارت على خطى الرواية الغربية في مراحل معينة ثم بدأت السعي للتخلص من التبعية بغية إبداع شكل جديد وأصيل يستجيب لمتطلبات الإنسان العربي وقد كانت مرحلة السبعينيات بداية التحول الفني.

تستعصي الرواية"جنساً أدبياً"عن التحديد الدقيق،ذلك أنها رافد لأشكال عديدة من التعبير والخطاب فهي لم ترثْ أسسها ساعة ميلادها من أي شكل أدبي محدد، إذْ تتشرب الرواية من فنون عديدة بحكم أنها " ملحمة العصر الحديث... وورثت دورها الثقافي، وهذا ما يجعلها من أكثر الفنون الأدبية قدرة على التعبير عن أزمات الإنسان وقضايا الواقع"[1] ومنه تعبر الرواية عن قضايا الإنسان العربي.

تبعاً لذلك فقد احتلت الريادة في النتاجات الفنية، لتحظى بمحاولات لرسم حدودها حيث يجمع النقاد على أن الرواية الحديثة، بدأت في نهاية القرن الثامن عشروبداية القرن التاسع عشر، في القرن الثامن عشر كانت تحبو، لكنها كانت في القرن التاسع عشر انتصبت على قدميها، وفرضت نفسها"[2]،وقد عرفت الرواية العربيةبداية التحول في الستينيات من القرن العشرين، ومعها بدأت الهيمنة على الساحة الأدبيّة والثقافيّة العربيّة.

في الأدب سردا نثريا خياليا طويلا عادة،تجتمع فيه عناصر فيNOVELوعليه تُعّد"الرواية اختلافها في الأهمية النسبية باختلاف في الأهميةالنسبية باختلاف نوع الرواية"[3]، ومنه يحمل التعريف السابق إضافة تمثلت في أن الرواية سرد أساسه الخيال تقوم على عدة عناصر تشكل البناء السردي.

وبناءً على ما سبق تصور الرواية أحاسيس ومشاعرالإنسان عبر التاريخ مرحلة بمرحلة،حيث تعد"شكل خاص من أشكال القصة"[4]،وعليه فإنها قص باعتبار آليتها وشكلها الفني،وكذلك بوصف إحاطة القصة لجميع مناحي حياتنا،لتكون المعاملة معها في الواقع الاجتماعي بشكل دائم"لهذا كانت الرواية أسمى حقل للحوادث الحسيّة أسمى بيئة"[5] لتتبع متغيرات الحياة.

يُعَرِفُ إبراهيم فتحي الرواية في معرض تفريقه بين الرواية والملحمة بأنها: "سرد قصصي نثري طويل، يصور شخصيات فردية من خلال سلسلة من الأحداث،والأفعال والمشاهد...وتختلف الحبكة في الرواية عن الحبكة في الملحمة الكلاسيكية وملحمة عصر النهضة،فهي لم تعد مرتكزة على التاريخ الماضي أو الأساطير،والرواية هي الشكل الأدبي الذي يعكس بأكبر اكتمال ذلك التعبير في الاتجاه العام للثقافة والأدب من الممارسة التقليديّة إلى الابتكار والأصالة"[6]ومسايرة متغيرات الحياة الإنسانيّة.

يصب هذا التعريف في نقطة أن الرواية نوع من الأنواع السردية النثرية الطويلة، تحرك مجرى الأحداث فيها شخصيات،حيث تختلف الحبكة الموجودة في الرواية عن تلك الموجودة في الملحمة،وفي هذا مقارنة بين الملحمة والرواية.فالرواية لا تسمح بطغيان الطابع التاريخي أوالأسطوري على الجو العام في بناء المحتوى الروائي.

إنَّ الأجناس الأدبيّة وليدة التصورات التي ولدت فيها وترعرعت في كنفها، فهي تعكس من جهة ما تحولات المجتمع والزمن والمحيط وحتى الذوق...وتعكس من جهة أخرى مقتضيات العصر ومتغيراته،ومع هذا فقد نصب الروائي نفسه شريكا لهذا القلق العميق،ولهذا الليل البهيم الذي يتخبط فيه معبرا عما يختلج داخله المضطرب في ثنايا الرواية التيتعكس الواقعلكن بطريقة فنيةمن خلال مخيال المؤلف(الراوي)مغذية الأحداثوالصراعات الطبقية للراوية لتصبح بذلك خلفية لها.

ويمكن القول بأنه خلق معادلة "الفرد في مقابل المجموع،والإحساس في مقابل الرؤية الكليّة...والحدث في مقابل مختلف العناصر المكونة للنص الروائي"[7]،فهي تشحن بالتصورات الحياتية للإنسان.

ومنه توجد أنواع روائية تصنف بحسب التيارات الأدبية (رواية رومانسية،رواية واقعية...) وهناك أنواع روائيّة أخرى تصنف بحسب الموضوع،بالإضافة إلى وجود أنواع روائية تصنف بحسب التحقيب الزمني (رواية حديثة...وثمة ألوان أخرى تصنف بحسب نواتها

الأساسية والرهانات التي تدور حولها، منها ما تراهن على الأحداث ومنها ما تراهن على الشخصية... والأطروحة.

2-رواية الحدث:(Roman Evènement)

يعّد الحدث أحد العناصر المحورية في بناء الرواية، حيث يكتسي أهمية بالغة في "روايات المغامرات والروايات البوليسية، ورواية الرعب، ورواية العجائب التي تدور حوادثها في بيئة مخيفة وحشية"[8]، فهو الجوهر الذي تبنى على أساسه باقي العناصر السردية ، تحاول بروزه في العمل السردي.

يرى لوتمان بأن "الحدث يميز النص الأدبي عن غيره من ضروب النصوص، شأن المعجم والدليل والتقرير، إذ هو عنصر لا مفر منه للذات"[9]،حيث يكون محور العملية السردية كما أنه مكون أساسي من العناصرالسردية التي تشكل العمل السردي .

تُعَرَفَ راوية الحدث بأنها: "الرواية التي تقوم حبكتها على تعاقب الأحداث والتقلبات التي يعيشها البطل،فللحدث القصصي في هذه الرواية المكانة وفعل السرد فيها غاية تطلب لذاتها،ومصدرلذة يشترك في التمتع بها القارئ والراوي معا،وعليه كانت الأحداث قطب العالم الروائي"[10] وجوهرها الأساسي.

يشير التعريف السابق إلى أهمية الأحداث داخل الرواية،وارتباط ذلك ارتباطًا وثيقًا بالقضايا اليومية للإنسان العربي.ومع تطور الأحداث،واتساع أفاقها،وانفتاحها علىأجناس وفنون أخرى،وموازاة مع تطور الفلسفة والعلوم الإنسانية غذت الشخصية محوراً هاماً،ونواة أساسية في الكتابة الروائية.

3-رواية الشخصية: (Roman personnel)

عانت الشخصية في الإبداع ردحاً طويلاً من الزمن ،إذ ظلتْ مهمشة إلى أنْ حلَ القرن التاسع عشر، حيث يرجع ألان روب غرييي اهتمام روائيي هذه الفترة بالشخصية ، لصعود وارتفاع قيمة الفرد في المجتمع. مما جعل الشخصية صورة لمميزات الطبقة الاجتماعيّة، وجوهر الكتابة الروائية، فأصبحت كل عناصر السرد تصب في إطار الشخصية والمساعدة على تقديم حد أقصى من البروز"[11]،وهذا ما جعل الشخصية محور الإهتمام السردي ضف إلى ذلك حملها للهموم الاجتماعية.

أصبحت الشخصية عنصرا مهيمنا غير خاضع لسيطرة الحدث،حيث دفعت المقتضيات الجديدة إلى ضرورة خلق فعل إبداعي يستوعب الشخصية،هو ما عرف بـ"رواية

الشخصية" التي تعرف بأنها:"الرواية التي مدارها على تطور شخصية،لكن هذه الشخصية الرئيسية بعيدة عن شخصية المؤلف بعدا يمنعنا من أن نعتبر صورة منه، فهذه الرواية وإن ضارعت السيرة الذاتية،_في تمحورها حول شخصية رئيسية، وفي امتداد عالمها_في الزمن،وتعويلها على الذاكرة،فإنها متجذرة_في القص التخييلي، وذلك لقيامها على ميثاق روائي صريح كان أو ضمنيا من جهة السرد_في هذا الرواية بضمير الغائب،كرواية الرفاعي لجمال الغيطاني،وقد يكون بضمير المتكلم مثلما هو الأمر_في الياطر لحنّا مينة"[12].

يشير هذا التعريف إلى أن رواية الشخصية تجعل من شخصية ما محورا لها،ولكن قد تتداخل رواية الشخصية مع رواية السيرة الذاتية، وهذا من خلال اشتراكهما_في فلك الشخصية وجوهرية هذه الأخيرة.

عرفت روايات الستينات بروز هذا النوع من الروايات نذكر منها رواية "اللص والكلاب" لنجيب محفوظ،حيث تطغى بعض ألوان تيار الوعي كأبرز التقنيات المستخدمة فيها لأن" اختيار أسلوب تيار الوعي بوصفة آلية فاعلة_في تشكيل إطار الرواية ، يعّد اختيارًا مهمًا_في ذلك السياق"[13] لتتيح هذه الآلية المجال أمام الشخصية لتصبح محورا رئيسيا_في الكتابة الروائية،فنحن نجد أمامنا "بدلاً من البطل المفرد تياراً للوعي ومونولوجًا داخليًا لا يتوقفْ ولا ينقطعْ...في عالم متفتت مبعثر الأجزاء"[14]،ومنه تشحن الشخصية بالوعي للقضايا الاجتماعية.

إنّ احتلال الشخصية لدائرة الاهتمام داخل الإبداع الروائي، ارتقى بها لتكون "مسألة خلق تلقائي_في الذهن وذلك لا يتشابه بتاتًا مع توثيق الظواهر الطبيعية ،حيث يجب ألا يتدخل الذهن لتقديم شيء من عنده"[15]حيث يتمظهر هذا النوع من خلال هيمنة الشخصية مُشَكَلَةً_في "أنا" الراوي الذي يتحدث عن أناه مطلقًا أو هو غائبًا، كمايتبدى من خلال العنونة مثل"اللص والكلاب"،"الشحاذ"،"عزوز الكبران...الخ.

ونجد_في المتن الروائي تطور هذه الشخصية على المستوى السيكولوجي والاجتماعي، وانعكاس مختلف أشكال الوعي عليها، إذ ينقل إلينا العالم الموضوعي من منظورها حتى لكأنها هي محور الكونلكن "يكون الزمن عديم الأهمية بسبب أنه لا يتبع إلا ضرورة واحدة هي ازدياد أعمار الشخصيات ازدياداً حسابياً"[16]ومنه تكتسي الشخصية دائرة الاهتمام_في العملية السردية.

أما_في أواخر الحرب العالمية الأولى، فقد برزت مواقف ودعوات عديدة، نتيجة تحول الرؤية السردية، حيث تنادي بضرورة الحد من الاهتمام المفرط بالشخصية، لترى الشخصية

بأنها:" مجرد كائن ورقي بسيط شكلي وتقني للغة الروائية"[17]،فهي بذلك تعّد علامة كأي العلامات الأخرى_في داخل العمل الروائي، مشحونة بمختلف الدلالات الثقافيّة أو الفكرية والاجتماعية...الخ،فـ"الشخصية لا يمكنها أن تظل مرتبطة بحياة مجتمع انتهى، فقد تخلت الرواية عن فكرة القوى العظمى للشخص"[18]، فهي ليست العنصر الأساسي للعمل السردي الروائي،وإنما العمل الروائي تفاعل بين جميع العناصر الأخرى.

يقدم أندري جيد(André Gide1869م/1951م) موقفه من الشخصية و ينادي بـ"ضرورة الحد من غلوائها والإخماد من توهجها،والتضليل من عنفوانها"[19] لأنها خطفت الاهتمام_في الأعمال الإبداعية ما جعل باقي العناصر السردية تعاني من التهميش هذا من جهة،وأيضا العمل الإبداعي ليس شخصية فقط،وإنما هو تضافر جميع العناصر مشكلة بنية سردية تتفاعل فيما بينها.

كما ذهبت كل من فيرجينيا وولف(Virginia Woolf 1882م/1941م)وميشال زيرافا (Michel Zéraffa)هذا المذهب ، حيث قام موقف ميشال زيرافاعلى أساس التغييرات الحاصلة على مستوى العلاقاتالاجتماعية والطبقيةوحالة الثبات التي ميزها،ومنه فلا بد من تطور يطال الساحة الأدبية عموما والبنية الروائية خصوصًا.

بناءً عليه رفعت الرواية الحديثة مبدأ " الإعلان عن موت الشخصية، وإعادة النظر_في ما كان يبدو علامة المميزة الثابتة، لكن الطعون_في هذا المفهوم العتيق، إنما هدفها المبالغات_في النفسيّة"[20]، ضف إلى ذلك أن كل عنصر من العناصر السردية داخل العمل الروائي لديه غاية معينة تشحن دوره داخله.

في ضوء ما سبق نشير إلى أن هذا التيار تصدى للموقف المنادي لجعل الشخصية محورا للكتابة الروائية وعنصرًا مهيمنًا عليهَا،فانتفض من جبروت الشخصية والاهتمام المفرط بها داخل الكتابة.

إنّ تطور الفن الروائي_في مجال التقنيات وسعيه الدؤوب_في هذا المسار ،حفّز الكتاب الروائيين إلى التطرق لموضوعات إيديولوجية،بحثًا عما يختلجُ الذوات البشريةمما خَلق أنواعاً روائية تصنف حسب نواتها الأساسية والرهانات التي تدور حولها ومنها:الرواية الأطروحة.

4-رواية الأطروحة Roman a thèse)/ (Novel of adeas

كانت الرواية الأطروحة تجسيداً لوعي روائي جديداً لم يكن معهوداً على الساحة الروائية مماصاحب تغييرًاعلى مستوى البنية السردية ، فهذه الرواية"مؤهلة للتعبير عن

لحظة وعي مزدوج إيديولوجي واستيطيقي"[21] ، فالتعبير عن الإيديولوجي هو تجسيد للتوجهات الفكرية الفلسفية للروائي.و منه يبدو أن رواية الأطروحة أو رواية الفكرة، قامت أساسًا ضد النظرة الإيديولوجيّة الواحدة، فهي تحاول إثباتإيديولوجيا أو نفي أخرى.

سلكت الرواية الأطروحة منحى كان له"الأثر_في ترسيم تجربة روائية جديدة،التقطت العنصرالاجتماعي مظفورا مع العنصر السياسي بقصد إبرازالصراع والانتقاد ومحاسبة الماضي والراهن للنظر إلى المستقبل"[22] تمازج الرواية الأطروحة بين ماهو إيديولوجي، وماهو اجتماعي لبناء رؤية جديدة تقويمًا للحاضر وتشييداً لنظرة أفضل للمستقبل.

ورد_في معجم السرديات تحديد لمفهوم الرواية الأطروحة فهي:" الرواية التي تنتهج أساليب السرد الواقعي،وتبرز لقارئها أساسًا بوصفها حاملة رسالة تعليميةتسعى إلى إثبات حقيقة أحد المذاهب السياسيّة أوالفلسفيّة أوالعلميّة أوالدينية"[23]، فهي تحاول إقناع القارئ بالتوجهات والرؤى التي تشكل جوهرها وتدورحولها نواتها.

تسعى رواية الأطروحة إلى حمل القارئ على الاقتناع بتصور ما ودحض ما كان يحمله_في ذهنه من معتقدات وتصورات،"ولما كان النص الروائي لا يخلو من مضمون فكري أومضمون سياسي ومن تأملات_في الإنسان والفن والوجود ،التبست الرواية الأطروحة بغيرها من الروايات،وكاد هذا المصطلح يغدو مفهومًا عامًا يجوز إطلاقه على الروايات جميعها، لاسيما ماكان منها ذا مدلول سياسي نضالي"[24]،ومنه لا تخلو رواية الأطروحة من مضمون سياسي أو اجتماعي،لذلك يقع الخلط عادة بين"الرواية الملتزمة"(رسالة فكرية، اجتماعية) و"رواية الأطروحة"التي تراهن على الفكرة لا التقنيات_في تحديده،لذلك اجتهد العديد من الدارسين إلى تأطير هذا الجنس الروائي حيث " عملت سوزان سليمان على تحديد السمات المميزة لهذا الجنس الروائي الفرعي فتوصلت إلى خاصتين أساسيتين تميزان الرواية الأطروحة هما:وضوح الأطروحة التي يسعى النص السردي إلى إشهارها و الدفاع عنها ، فالراوي يعمل جهده لكي يتفادى الغموض والالتباس ،ويحرص أن يكون تأويل النص محدودًا، فيضمن وصول الأطروحة إلى القارئ،أما الخاصية الثانية فهي تَسلّط الرواية الأطروحة على القارئ"[25].

تتميز الرواية بميزتين هما:ظهور الأطروحة بجلاء ومحاولة الدفاع عنها_في النص السردي، وتوجيه ذهن المتلقي صوب فكرة معينة، حيث يبرهن على صحة ووجاهة هذه الأطروحة بوسائل عديدة (لغويّة، تاريخية...).

أما الميزة الثانية فهي تستهدف قارئًا محددًا_في ذهن المؤلف،فـ"سواء كانت الأطروحة محافظة أم ثورية.فإن الرواية الأطروحة تسعى دائما إلى أن تمارس على قارئها فعلاً سلطويًافتقدم له عالماً ساكناً موازناً متناغماً تملؤهحقائق ثابتة ومطلقة"[26]مثل الاعتماد على التاريخ وتطويعه مع الأطروحة التي يدافع عنها الكاتب .

تمارس الرواية الأطروحة سلطة على القارئ،و يظهر هذا من خلال تقديم عالم تسوده حقائق مطلقة تكون متوازنة ومتناغمة،ولعل غلبة الوظيفتين التواصليّة والإيديولوجيّة_في الرواية الأطروحة،تفسر نفور النقاد والقراء والكتاب أنفسهم من هذا الجنس الروائي الفرعي وعدّهم إياه ضربًا من أدب الداعية الخالية من الفن.

وتوجد هنالك أمثلة طفت_في الساحة الروائية ومن"أمثلة الرواية الأطروحة نذكر رواية "حقيقة"لـ زولاZola،ورواية"الأرض"لعبد الرحمن الشرقاوي،ورواية"الأمل"لـ مالرو Malrauxورواية "المرصد" لـ حنّا مينة"[27]،ومنه تعد الرواية الأطروحة"مظهرًا من مظاهر الثورة الابستمولوجية التي غيرت الكثير من المفاهيم والمعتقدات والتصورات الحضارية والسياسية والاجتماعية...الخ.ويرجع هذا إلى انطلاقها ومن بعد فكري ينهض على أساس أطروحة مذهبية أوسياسية أو اجتماعية"[28]،وعلى ضوء ما سبق فإن الرواية الأطروحة ترتكز أساساً على الدفاع عن فكرة ما أوتياراجتماعي أو فلسفي من أجل تغيير معتقد أوفكرة سائدة_في مرحلة ما لدى قراء محددّين.

الرواية الأطروحة_في الكتابة السرديّة العربيّة (رواية "هذا الأندلسي" لـ بنسالم حميّش أنموذجا)

تعتبر الكتابة الروائية -غالبا- مرآة تعكس فكر وفلسفة المؤلف، بل إنّ بعض الفلاسفة والمفكرين يتخذون الكتابة الروائية مجالاً لنشر فلسفتهم واقتراح تصوراتهم والتعبير عن أفكارهم، والدفاع عن إيديولوجياتهم، وتَمْنَحُ الكتابة الروائية بطبيعتها هؤلاء المؤلفين ممكنات التعبير_في أوسع صورها.

لهذا ظلّت الرواية جنسًا أدبيًا منفتحًا على تبني هذه التوجهات، إضافة إلى القدرة على بلورة مختلف تشكيلات الفعل الإبداعي، حيث اهتم الكتاب الروائيون عمومًا بمسألة خلق إبداعات روائية، تتميز بمسايرة الراهن المعيش ذي الحمولة الإيديولوجية والأفكار الفلسفية التي اتخذوها خلفية ودربًا معرفيًا_في بناء أعمالهم الإبداعية.

وارتبطت بعض النصوص المغربية باستراتيجيات جديدة_في الكتابة الروائية تنبثق من الأرضية الفكرية أساساً للإبداع أي تغليب الفكري على ما سواه من رهانات

الكتابة،وهذا "ما يفسر الكثير من الجوانب التعامل الفكري والجمالي مع الأرضية التاريخيةوالواقعية التي انطلقت منها الرواية المغربية"[29]،وهذا لرصد انشغالات المجتمع المغربي والاسهام_في تحولات جديدة للرواية المغربية،وهكذا بلورت الرواية المغربية هذه الأطروحات الفكرية_في بناء مضمون النتاجات الروائية،مما جعلها محل اهتمام العديد من الدارسين والمثقفين والكتاب...وعليه أصبحت الرواية وعاءً حاضناً لهذه الأفكار،ويظهر هذا من خلال تطرق بعض الأعمال الإبداعية إلى الموضوعات المسكوت عنها،ومثال ذلك رواية "أن ترحل" للطاهر بنجلون[30].

ويمكن القول أن التعبير عن الرؤى الفكرية أصبح السمة الجوهرية البارزة التي تنبني عليها الروايات_في واقع الأمر."مما خلقت واقعا جديداً من خلال بنيتها الفنية المتغيرة بحيث استطاع كتابها ابتداع واقع فني معادل لواقع الحياة بفضل التشخيص الأسلوبي للغةوهذا عنصر أساسي من عناصر الحداثة_في الخطاب الروائي المغاربي وعلامة دالة على خصوصيته"[31]،وهو ما جعله علامة مميزة عن باقي الخطابات الروائية الأخرى مثل الخطاب الروائي المشرقي.

ضّف إلى ذلك أن المحاولات الروائية المغربية خصوصًا ليست مفصولة عن الإسهامات الإبداعيّة العربيّة أوبعيدة عن التحولات الاجتماعيّة والسياسيّة_في الوطن العربي،ونشير إلى أن التجربة الروائية الجديدة بالمغرب،بدأت"تشكل ظاهرة منذ بداية الثمانينات،ولقد كانت قبل ذلك بالأخص منذ أواسط السبعينيات (قصص التازي والمديني)عبارة عن تجارب فردية متناثرة لا تمثل ما يمكن اعتباره ظاهرة"[32] إلاّ أنها تبقى مجرد إرهاصات الأولى لتطوير الكتابة الروائية ،وبطبيعة الحال عالجت قضايا اجتماعية وتناولت مواضيع عامة ثقافيّة، بصفة منفردة وكانت بذلك مجرد محاولات فردية، مما انعكس على النتاجات الروائية على المستويين الفني والموضوعي (المضموني)كذلك،ويعود سبب تذبذبها إلى مرورها بفترات ركود اجتماعي وثقافي.

لقد تمخض عن الركود نوع من الثبات على المستويين الموضوعاتي والفني، وهذا"لعجز أصحابه على تمثل كل أبعاد التجربة التي يعبر عنهاواستقصائها واستيعاب ملامح المجتمع الجوهرية لبلورتها جماليا وصياغتها فكريا بشمولية"[33] من جهة.ومن ناحية أخرى الافتقاد إلى"الاهتمام بمكونات النصوص وعناصرها الفنية واتجاههم إلى التعليقات التي تطمس جوهر النص ودلالته الذاتية"[34] من جهة ثانية .

ومهما يكن من أمرٍ فإن تغير الرؤية الإبستمولوجية للكتاب (الروائيين) ،كان له الأثر الكبير في نضوج تلك النتاجات الروائية، وخروجها من شرنقة الركود، وعليه فقد تطورت النتاجات على المستوى الموضوعاتي ،حيث أن الكتابة في هذه الموضوعات ماهي إلا انعكاس لتحولات الواقع السياسية والاجتماعية،ليتم التطرق على إثر ذلك لموضوعات: الحرقة، الإرهاب، وما يسمى ربيعًا عربيًا.

كما وقعت تغييرات على المستوى الفني كذلك، إذْ اعتمدت على منابع معرفية جديدة واستندت على دعائم مختلفة، وهكذا اختيرت الرواية مسرحًا لتضافر هذه المعارف، منها الفلسفة والتاريخ والفن والشعر،لتعد بذلك كإجراءات تناصية، انفتحت على نصوص وخطابات وعلوم عريقة كالفلسفة...الخ ، مما أسهم في تغذية الإستراتيجية التلفظيّة والدلاليّة ، ما جعلها متصلة بالسياق الإيديولوجي والاجتماعي الذي نزع إليه الكتاب.

تندرج رواية الأطروحة ضمن النتاجات الروائية الحديثة التي تتصدى للواقع في شتى تجلياته فتفككه لتعيد تركيبه وبناءه،وقد واكب ظهورها الفلسفات الحديثة، وموازاة مع نضج الدراسات الموضوعاتية في الدراسات الأدبيّة عمومًا،وعليه طفت على سطح الساحة الأدبية نماذج روائية تميزت بسمات الطابع الأطروحي في تناول المضمون الروائي نذكر منها:"الشراع والعاصفة"لـ حنا مينا،"أن ترحل"لـ طاهر بنجلون،وكذلك رواية "هذا الأندلسي " لـبنسالم حميّش،...الخ.

تعتبر "رواية الأطروحة"مجالاً لصراع الأفكار والإشكاليات الفلسفية والقضايا الكبرى ، وهي مؤشر على تطور الوعي و انخراط المؤلف في قضايا أمته معبراً عن التزامه الفكري والثقافي ويجنح هذا اللون إلى السرد الواقعي ،حيث أصبحت البنية السردية في خدمة المضمون.

ومن هذا المنظور تعتمد رواية الأطروحة على "سلطة النص السردي، إذ تعمل كصدى لسلطة خارجية، تشتغل داخل العمل لإبعاد الإيهام وتحديدا إمكانيات التأويل المسموح به للقارئ المحتمل عبر أفق انتظار تواطؤ الأرصدة الثقافية"[35] فيها، وعليه فإن رواية الأطروحة تراهن دائما على الفكرة أو المحتوى، فهي تتخذ الأسس الفلسفية -في غالب الأحيان- للدفاع عن ذلك التيار.

انطلاقا مما سبق فإن رواية "هذا الأندلسي" تجنح إلى تصوير الواقع بتقديمه في شكل حقائق واقعية، مما تقود القارئ إلى الاعتقاد بها وتبنيها، ويجعلها -هذا الأندلسي- تعبيرًا ذاتيًا منحازًا لأفكار اجتماعية وإيديولوجية وسياسية،"ومن الطبيعي أن يستغل

المبدع_في ذلك جميع الوسائل الفنية والتمويهية والسياقية،حتى لا يظهر هذا التسلط الإيديولوجي بشكل مكشوف مما يؤثر على درجة التأثير_في القارئ"[36] الذي يترك له مجال لحرية التأويل .

ومن خلال الغوص_في المتن الروائي، نجد بنسالم حميّش، قد ارتكز على تقنية التفصيل السردي واستدعاء جوانب من حياة شخصية ابن سبعين_في نسج أحداث الماضي، لإضاءة الواقع الإسلامي، وإماطة اللثام عن أسباب تداعيه وانهياره ،ومن ناحية أخرى فالرواية تمثل نوعا من البحث عن مخطوطة ابن سبعين الضائعة بأسلوب السرد الاستعادي الشخصي، وكذلك تنجز حفرا عميقاً_في الذاكرة التاريخية، تنشد_في ذلك التصوف والتاريخ والجمال، ومثال ذلك حواره مع قطر الندى_في وصف مخطوطته فيقول: "وزاد_في ذهولي فقدي لمخطوطتي صفحاتها كأنها من وحي أوحى إليّ ،ومن فيض الوجد الروحاني عليّ، كلماتها علوية التكوين أوجيةُ التعبير، واردات هي من جنس ما لا يخالج الفكر والنفس مرتين بل مرة خارقة للعادة ، متفردة"[37] .

عَبَرَ عما حل به من حالة الدهشة والذهول في الفشل من استعادة مخطوطته الضائعة، ليظهر حواره مع قطر الندى ، سعة رحابة فضاء الأندلس، فهو عالم يتقبل تعايش كل الأديان والثقافات والمذاهب،وتُقَرِبُ المجال كذلك للمكانة التي تحظى بها المرأة عند "ابن سبعين".

وظّف بنسالم حميّش الخلفية التاريخية_في إعادة دائمة للخلق والإبداع لسيرة "ابن سبعين"، ولكن لا يعني هذا الانفتاح على التاريخ، ودائرة تحرك الرواية تتحرك بما يقتضيه التاريخ، وإنما منحها طابعها الخاص، حيث صقلها بزعزعة المسلمات وأدخلها_في دوامة تجديد المعرفة بها، "فالحاضر يُجعل ملموسا جدا من الناحية التاريخية بحيث تتجاوز الرواية كل الأدب"[38] من خلال تفاعل الخيال مع الموروث التاريخي .

كما أنه احتفى بالجوانب الفكرية والروحية التي تجسد هذه الشخصية من خلال إعادة الاعتبار للحالات المرتبطة بالتفكيروالتأمل،مما يخفف من سلطة التاريخ، ويجذب ذلك القارئ للبحث عن مقصدية"بنسالم حميّش"التي تتوارى في داخل المتن الروائي، وهو ما يدفع بالقارئ إلى إصدار أحكام قبلية تنسجم وأفكار الكاتب.

تنزع رواية"هذا الأندلسي"إلى الاختلاف والخصوصيّة،مقسمة بين الحكي كفعالية روائيّة إبداعيّة ذات أهمية،والطابع الأطروحي كونها تتوجه إلى التعبير عن رغبة ملحة_في إثبات اعتدالية ووسطية عبد الحق بن سبعين،وهو يسرد على لسانه أن هاجسه_في الدنيا

ليس السعي إلى المناصب والمراتب،وإنما السعي وراء المعرفة والنهل من العلم حتى ولو كان بعيدًا صعب الوصول إليه لأنه "في وسط يشكو من سقم فكري حاد،وأمية متعددة الأشكال والأبعاد، ليس للمحقق التواق إلى الهواء الطلق إلا أن يختار تعلم الغربة المبدعة الهائلة. فلربما في هذا تكمنُ طريقته الخاصة للقدح في الغباوة الزاحفة والعمل على لقاءات القمة بين الغرباء"[39].وعبر هذا تتجلى شخصية ابن سبعين في مجابهة سطحية التفكير التي انتشرت في عصره.

وعلى إثر ذلك غذت مقدسات البلاغة تمارس فعلاً سلطوياً على القارئ لتوجهه صوب فلسفة الوجود عند"ابن سبعين"،يظهر هذا في إحدى لحظات تأمله للوجوديقول:"ما أعلمه هوأني كلما قَلَبْتُ الوجود،غرقت في متاهات المعنى،وابتعدت عن الطرق المطروقة والأقوال المكررةبالإضافة إلى عدّها جزءًا من وعي مثقف منغمس في غياهب التفكير في الهموم التي ألقيت على عاتقه، مما ابتكر طريقة جديدة غير تلك الموجودة،فالسبيل إذن هو سلوك...كل محقق متعمق عليه أن يزهد في نيل الشهرة وذيوع الصيت"[40] حيث نلمس قراءته لمعنى الوجود بنظرة اتسمت بمغايرة الأراء السابقة.

وعليه تقوم رواية "هذا الأندلسي" على نوع من الإستراتيجية التلفظيّة والدلاليّة في التي جعلها تقترب من الواقعية في السرد،ومنه غذّت خيال الرواية بالروافد الثقافية ،مما أضفى نوعاً من الجمالية،كما تم شحنها بتعاليم تنزع إلى توضيح حقائق و أفكارسياسية وفلسفيّة وحتى تاريخية، وهذا ما يبررتسميتهاب"رواية الأطروحة"[41]وبطبيعة الحال تعبر الرواية عن مقتضيات الحياة الاجتماعية أو هي (صوت المجتمع)[42] انطلاقا من تعبير فرانك أوكونور.

ومنه اعتمد الكاتب على تقنية الوصف والسرد الاستعادي على لسان ابن سبعين معبراً عن انحيازه للأفكار والتصورات الصوفيّة المعتدلة، كما عرض مواقفه السياسيّة و رؤيته الثاقبة للحياة ،مما أكسب الرواية خاصية المعقولية في الكتابة، ونلفي غناها بـ"قيم مصوغة بوضوح أو على مجموعة من المعتقدات والمعطيات البديهية"[43]المساعدة على الدفاع عن الأطروحة.

يُمْنَحُ القارئ القدرة على إعادة تأويل النص الروائي، على الرغم من تقييده بوضوح في المعنى وتحديده إياهمع أن الروائي لم يتركْ مجالات واسعة من التأويل، ومن ثمة فإن عملية إعادة قراءة وإنتاج النص لا تتحقق،وهو مالا يجعل النص مفتوحًا متعدد الدلالات كما يرى إمبرتو إيكو ، لأن الرواية عندما" توظف عدداً معيناً من الأجهزة السردية

والخطابيّة ،فإنها تحيل على الواقع، وأيا كان شكلها على ذات التلّفظ"[44] أي على الايدولوجيا التي أراد الروائي الدفاع عنها، وسخر مكوناتها للتعبير عن مواقفه إزاء سيرة العلامة وعرض آرائه في السياسة والدين والوجود والفسفة ، حيث تنهض الرواية على أساس الوعي بالتاريخ والكتابة، فهي تقوم بدور مميز في رسم ملامح شخصية ابن سبعين، وليس هذا فقط، بل تلجأ إلى توفير المناخ الملائم للاستفادة من جميع الدلالات والمعاني التي تشع بها هذه الشخصية.

لقد حاولنا تتبع أبرز محطات تطور الرواية فمن رواية الحدث إلى رواية الشخصية ثم رواية الأطروحة ،ولكن ما جعلنا نشير إلى تصنيفات الرواية على أسس الرهانات التي ترفعها وتحتفي بها (رواية الحدث،رواية الشخصية ...الخ) هو أن الأجناس الأدبية نتاج التصورات التي نشأت فيها من جهة ، ضف إلى ذلك تطور التقنيات الروائية من جهة ثانية ولكن تسمية الكتابة الروائية بـ"رواية الأطروحة "هواعتمادها على فكرة أوقضية أو تيار تدافع عنه،وهو الأمرالذينلمسه في روايةّهذا الأندلسي"حيث تقدم الرواية قضية"ابن سبعين"ومسألة التصوف المعتدل،وتسعى بمختلف الأساليب والطرق اللغويّة أن تقنع بها،كما أنها تسعى لتقويض ما يشاع عن الشخصية الرئيسيّة من إدعاءات حولها من خلال حمل القارئ على الاقتناع بطبيعة الفلسفة التي تتميز بالطابع العقلاني في بلاد المغرب والعرفاني في بلاد المشرق.

قائمة الإحالات و الهوامش:

---

[1]- طه وادي: دراسات في نقد الرواية،ط:02، دار المعارف ، القاهرة،مصر، 1993م،ص03.

[2]- حنا عبود: من تاريخ الرواية،(دط)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، سوريا، 2002م، ص10.

3- مجدي وهبه وكامل المهندس: معجم مصطلحات العربية في اللغةوالآداب،ط:02،مكتبة لبنان،بيروت،لبنان،1984م،ص183.

[4]- ميشال بوتور: بحوث في الرواية الجديدة، تر: فريد أنطونيوس،ط:02،منشورات عويدات ، بيروت ، باريس، 1982م، ص05.

[5]-المرجع نفسه ، ص 07.

[6]- إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية،ط:01، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين ، تونس، 1986م، ص177/176.

[7]- نعيم اليافي:أطياف الوجه الواحد -دراسات نقدية في النظرية والتطبيق-،ط:01، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق، سوريا، 1997م، ص193.

[8]-مجدي وهبه وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص 183.

[9]- محمد القاضي وآخرون: معجم السرديات،ط:01، دار محمد علي للنشر ، تونس، 2010م، ص145.
[10]- المرجع نفسه، ص 226.
[11]- حسن بحراوي:بنية الشكل الروائي (الفضاء،الزمن،الشخصية)،ط:01،المركز الثقافي العربي،بيروت،دارالبيضاء،1990م،ص208.
[12]- محمد القاضي وآخرون: معجم السرديات ، ص221.
[13]- عادل ضرغام: في السرد الروائي،ط:01، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون ، الجزائر العاصمة ،الجزائر ، 1431هـ/2010م،ص80.
[14]- إبراهيم فتحي: معجم مصطلحات الأدبية، ص44.
[15]- موسوعة المصطلح النقدي: الواقعية، الرومانس، الدرامه والدرامي، تر: عبد الواحد لؤلؤة، مج:03 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان، ط1، 1983م، ص78.
[16]- مها حسن القصراوي :الزمن في الرواية العربية ،ط:01،المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت ، لبنان، 2004م، ص 37.
[17]- عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية –بحث في تقنيات السرد–،(دط)، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، شعبان 1998م، ديسمبر 1998م، ص76.
[18]- حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، ص 208.
[19]- عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، ص 80.
[20]- ايف ستالوني: الأجناس الأدبية، تر: محمد الزكراوي، مراجعة: حسن حمزة،ط:01، المنطقة العربية للترجمة بيروت ، لبنان، أيار (مايو) 2014م، ص124.
[21]- أحمد اليبوري: دينامية النص الروائي،ط:01، منشورات اتحاد كتاب المغرب ، الرباط ،المغرب، 1993م، ص20.
[22]- شعيب حليفي: هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل (دراسات في الرواية العربية)،ط:01، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، المغرب، يناير 2005م، ص134.
[23]- محمد القاضي وآخرون: معجم السرديات ص208/207.
[24]- المرجع نفسه، ص 208.
[25]- المرجع نفسه، ص208.
[26]- المرجع نفسه ، ص 208.
[27]- المرجع نفسه، ص 208.
[28]- سعيد يقطين: قضايا الرواية العربية الجديدة –الوجود والحدود –،ط:01، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة ، الجزائر،1433هـ/2012م، ص 198.
[29]- بوشوشة بن جمعة: اتجاهات الرواية في المغرب العربي،ط:01، المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، 1999م، ص33.

[30]- كاتب مغربي،تطرق_في رواية "أن ترحل"لظاهرة الحرقة حيث عالجها بأسلوب غلب عليه الطابع الأطروحي.

[31]- عبد القادربن سالم:بنية الحكاية_في النص الروائي المغاربي الجديد،ط:01،دارالأمان ،الرباط،المغرب، 1434هـ/2013م،ص11.

[32]- سعيد يقطين: القراءة والتجربة حول التجريب_في الخطاب الروائي الجديد بالمغرب،ط:01، دار الثقافة ، الدار البيضاء، المغرب، 1406هـ/1985م، ص07.

[33]- بوشوشة بن جمعة: اتجاهات الرواية_في المغرب العربي ، ص23.

[34]- محمد برادة: أسئلة الروايةأسئلة النقد،ط:01، شركة الرابطة ، الدار البيضاء، المغرب، 1996م، ص59.

[35]- سعيد علوش: مقالات_في نقد الرواية "جماليات رواية الأطروحة"، ص 2/1. الموقع:
WWW.SAID ALLOUCH.NET

[36]- حميد لحمداني: النقد الروائي والايدولوجيا(من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي)، ط:01،المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء،المغربأب 1990م، ص40

[37]- بنسالم حميّش: هذا الأندلسي –رواية –،ط:01،درا الآداب للنشر و التوزيع ، بيروت، لبنان ، 2011م، ص84.

[38]- جورج لوكا تش: الرواية التاريخية، تر:صالح جواد الكاظم،ط:02،دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد ،العراق، 1986م، ص116.

[39]- بنسالم حميّش ، هذا الأندلسي ، ص 130.

[40]- المصدر نفسه، ص 130.

[41]- سعيد علوش: مقالات_في نقد الرواية ، ص2/1.

[42]- فرانك أوكونور: الصوت المنفرد –مقالات_في القصة القصيرة–، تر: محمود الربيعي،(دط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م، ص07.

[43]- برنار فاليط: النص الروائي _تقنيات ومناهج_، تر: رشيد بنجدو، (دط)، الهيمنة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ص34.

[44]- فلاديمير كريزنسكي:من أجل سيميائية تعاقبية للرواية، عرض: عبد الحميد عقار، طرائق تحليل السرد الأدبي ، مجموعة من المؤلفين، ط:01، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، 1992م، ص205.